

والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضى على من يريد أو كالموت يستبطن ضحاياه لكنه يستقيم الكأس الأخيرة . وقد تعودت الطير أن تتبعه في كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جيش الأعداء وهاماتهم فيقرها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة التمداء في احترام الشجاعة ، وتقديس البطولة ، لكنه يستعمل الصور البديعة والمعاني البليغة ، فيحاطق في ذلك ويفتح الطريق لأبي تمام والمتنبى في رسم الممدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والدهر ، وجعل الممدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

وقلده أبو تمام في ذلك فلاً ديوانه بهذا المديح ، وقدس كذلك البطولة في صور رائعة ، وصف فيها جلائل الأعمال في الحرب والسلام ؛ فقال في ممدوحه إنه فارس الإسلام يحيي نجدة ابن الوليد وشهامة الأبطال المغاوير ، وهو عجيب حين يشرك الناس معه في امتداح من يريد :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمتُهُ لمتُهُ وَحَدَى

فهو ينطق بلسان العالم ، ويتحدث بجنان العرب والمسلمين جميعاً ، يسرون معه في مديحه ، لأنه صادق لا ينطق عن كذب ، وقد وفق أبو تمام في مدائحه هذه حتى نستطيع أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية تعدد البطولات وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها في كتاب لكانت أسبق من الشاهنامه في وصف الأجداد والمفاخر ؛ وهو يكثر في ديوانه من تعداد الأعلام التاريخية يضرب بها المثل ، وقد تبعه في ذلك الشعراء بعده ، قال أبو تمام :

لإقدام «عمرو» في سماحة «حاتم» في حلم «أحنف» في ذكاء «إياس»^(١)

(١) هو عمرو بن معد يكرب ؛ وإياس هو ابن معاوية ، كان قاضياً بالبصرة .